



International Journal of Humanities and Educational Research

Volume 2, Issue 4, December 2020, p.01-18

İstanbul / Türkiye

**A NEW READING OF HISTORICAL ACCOUNTS ABOUT THE
RULE OF THE BARBARIAN QUEEN (ELKAHINA) AND HER
RESISTANCE TO THE ISLAMIC ARMY OF CONQUEST LED BY
HASSAN IBN AL-NUMAN
(39-74 A.H./658-693 CE)**

<http://dx.doi.org/10.47832/2757-5403.4-2.1>

AHMED DJELAILI ¹

Abstract

The article tries to study the historical texts that dealt with the character of the barbarian Queen Tahia, known as the priestess, which sparked widespread controversy during the Islamic conquest, how did she reach the ruling? And the reasons for fighting the army of Hassan bin Nu'man? And its sabotage of the countries of the Maghreb by pursuing a policy of scorched earth? The problem of the number of the Queen's children, who are three for some, and for the others two? And their fate in the end, did they convert to Islam or were they killed in battle? And the issue of adopting a son and his brotherhood with her children? After going back to the most important sources and examining the historical texts that dealt with the subject and comparing them with each other, I concluded that: Most of those stories about Queen Tehya are closer to superstition than to historical truth, and were recorded after about a century and a half of the historical incidents, and that their owners were not honest and objective Scientific, they drew their information about people who did not live with the event but transmitted it orally, and the purpose of their stories was to try to polish the image of the conquering Umayyad army and reduce the resistance of the Moroccan queen, especially as she managed to inflict heavy losses on Hassan's army and forced him to retreat to Cyrenaica, Libya. More importantly, the latter did not bother to send reassuring messages to the queen explaining to her the noble mission that he came for, which is spreading Islam in the countries of the Maghreb, and then resistance to Hassan's death was not a rejection of the Islamic religion as much as it was in defense of the land and the homeland.

Keywords: Tehia, Priestess, Hassan Bin Al-Numan Resistance, Subvert Africa.

ISSN: 2757-5403

Article Information

Article History:

Received
03/11/2020
Accepted
17/11/2020
Available online
01/12/2020

This article has been scanned by **iThenticate**
No plagiarism detected

Copyright © Published
by Rimak Journal,
www.rimakjournal.com

Rimar Academy, Fatih,
Istanbul, 34093 Turkey
All rights reserved

¹ Dr.: Ahmed DJELAILI, Université Ahmed Draia, Adrar, Algeria. djellailiahmed@yahoo.fr

IJHER

International Journal of Humanities and Educational Research

Volume 2, Issue 4, December 2020, p.01-18

قراءة جديدة للروايات التاريخية حول حكم الملكة البربرية (الكاينة) ومقاومتها جيش الفتح الإسلامي بقيادة حسان ابن النعمان (39-74هـ/658-693م)

أحمد جلايلي²

ملخص

يحاول المقال دراسة النصوص التاريخية التي تناولت شخصية الملكة البربرية تيهيا المعروفة باسم الكاينة التي أثارت جدلاً واسعاً أثناء الفتح الإسلامي، كيف وصلت إلى الحكم؟ وأسباب محاربتها جيش حسان ابن النعمان؟ وتخريبها بلاد المغرب باتباعها سياسة الأرض المحروقة؟ وإشكالية عدد أبناء الملكة الذين هم عند البعض ثلاثة وعند الآخرين اثنان؟ ومصيرهم في الأخير، هل اعتنقوا الإسلام أم قتلوا في المعركة؟ وقضية تبني ولد ومؤاخاته مع أبنائها؟

وبعد الرجوع إلى أهم المصادر وتمحيص النصوص التاريخية التي تناولت الموضوع ومقارنتها ببعضها البعض توصلت إلى أن: أغلب تلك الروايات عن الملكة تيهيا هي أقرب إلى الخرافة منها إلى الحقيقة التاريخية، دُونت بعد مرور حوالي قرن ونصف من وقوع الحوادث التاريخية، وأن أصحابها لم يتحلوا بالأمانة والموضوعية العلمية، استقوا معلوماتهم عن أشخاص لم يعايشوا الحدث بل تناقلوه شفاهياً، والغرض من رواياتهم هو محاولة تلميع صورة الجيش الأموي الفاتح والتقليل من مقاومة الملكة المغربية، خاصة أنها تمكنت تكييد جيش حسان خسائر فادحة واضطرته للتراجع إلى برقة بليبيا، والأهم من ذلك أن هذا الأخير لم يكلف نفسه بعث رسائل تطمينيه للملكة يشرح لها المهمة النبيلة التي جاء من أجلها وهي نشر الإسلام ببلاد المغرب، ومن ثم فمقاومة تيهيا لحسان لم تكن رفضاً للدين الإسلامي بقدر ما كانت دفاعاً عن الأرض والوطن.

الكلمات المفتاحية: تيهيا، الكاينة، حسان بن النعمان، المقاومة، تخريب إفريقيا.

المقدمة

إن تاريخ الملكة البربرية تيهيا المعروفة باسم (الكاينة) التي كانت تحكم بلاد المغرب أثناء فترة الفتح الإسلامية قد ارتبط في المصادر والمراجع التاريخية بعدة إشكالات، منها: هل مصطلح الكاينة هو اسمها الحقيقي أم اسم أطلق عليها من طرف الرواة لترسيخ صورة ما؟ وأن اسمها الحقيقي هو شيء آخر. وكيف وصلت للحكم وأصبحت ملكة ينفذ لأوامرها أغلب قبائل البربر في بلاد المغرب؟ وإشكالية أبنائها الذين كانوا ثلاثة ثم أصبحوا اثنان فقط دون الإشارة إلى مصير الابن الثالث، وإشكالية المؤاخاة مع قيس البلوي، وانضمامهما إلى القائد حسان بن النعمان واعتناقهما الإسلام ومحاربتهم والدتهما وقومهما مع الجيش

² الدكتور: أحمد جلايلي، جامعة أحمد دراية، أدرار، الجزائر. djellailiahmed@yahoo.fr

الإسلامي، وكذي اشكالية مقاومة الملكة جيوش الفتح الأموي وهي تبلغ من العمر عتيا (127 عاما)، وقضية تخريب وإحراق إفريقية كي تنهي الفاتحين العرب الاستيلاء عليها، فكانت النتائج عكسية، فقد غضب عليها أنصارها ورعاياها من البربر وكفوا عن دعمها وتركوها تواجه مصيرها المحتوم لوحدها، ثم تلقى حتفها في المعركة على يد القائد حسان، وبذلك رجعت سياسة الأرض المحروقة على الملكة بالويلات. وقد ركزت المصادر العربية المشرقية منها والمغربية على الترويج لهذه الرواية بالذات لتعطينا انطباعاً بعدم راحة عقل الكاهنة وحمقها وسوء تصرفها وعدم كفاءتها في المجال السياسي وقيادة الجيوش، وقد تناقل المؤرخون المغاربة تلك الروايات دون تمحيصها كأنها حقيقة مسلمة لا جدال فيها ولا يكتنفها الشك. من هذا المنطلق جاءت فكرتي لإعادة قراءة الروايات التاريخية التي يتخللها الغموض ودراستها دراسة نقدية للخروج بنتائج منطقية وموضوعية لا يتخللها الشك.

1. إشكالية البحث: عملت في هذه الورقة البحثية على معالجة بعض الإشكالات حول حكم الكاهنة وفق العناصر الآتية:

- أ. تعريف الملكة تيهيا (الكاهنة) ومعتقداتها؟
- ب. طريقة وصول تيهيا إلى عرش المملكة البربر؟
- ت. إشكالية أبناء تيهيا؟
- ث. أسباب محاربتها الجيش الأموي ورواية الأرض المحروقة في المصادر التاريخية؟
- ج. مصير الملكة تيهيا؟

أولاً: تعريف الملكة تيهيا (الكاهنة)

1. إشكالية تدوين الأحداث:

إن المصادر التاريخية المتخصصة التي رجعت إليها وتناولت الفتح الإسلامي لبلاد المغرب كانت شحيحة حول الملكة البربرية "تيهيا" التي رُوِّجت لها تحت اسم "الكاهنة"، ولم تمدني بمعلومات تشفي الغليل، ومعظم الروايات التي ساققتها كانت تبتعد عن الحقيقة التاريخية وتقترب للأسطورة، والنص الأول الذي وصلنا عن هذه الملكة هو للمؤرخ المشرقي الواقدي (130-207هـ/747-823م)، وظل من جاء بعده يُكرر نفس المعلومات مع بعض الفوارق والإضافات البعيدة كل البعد عن الحقيقة³، وربما يعود ذلك التحريف إلى قلة المعلومات عن بلاد المغرب لدى المؤرخين خاصة المشاركة منها، وكذا عدم هضم تلك المصادر انهزام الجيش الإسلامي أمام جيش بربري تقوده امرأة، وكذلك عدم تَعَوُّد تلك المصادر العربية حكم المرأة لقومها واعتلائها المناصب العليا في الشأن العام، بالرغم من أن النماذج عن حكم المرأة في تاريخ العرب عديدة، من بينها حكم ملكة سبأ لقومها وحكم زنوبيا. والشئ الأخر هو تركيز المصادر على سوء السياسة التي انتهجتها الملكة تيهيا في حكمها من خلال الجور على رعيتها وتخريبها بلاد المغرب، (تطبيق سياسة الأرض المحروقة).

وقبل تقديم صورة تعريفية للكاينة يمكن التنويه إلى نقطة أساسية وهي أن أحداث الوقائع الحربية التي كانت بين الملكة موضوع الدراسة والجيش الأموي بقيادة حسان ابن النعمان جرت ما بين: 658-693م، أي أواخر القرن الأول الهجري/السابع الميلادي، أما تدوين تلك الوقائع تأخر إلى القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، أي بعد مرور حوالي قرن ونصف من وقوع الأحداث، وهو دليل على أن تلك الوقائع ظلت تُروى شفها، ليأتي المدونون في ما بعد فيختاروا منها ما يتلاءم مع رؤى السلطتين الدينية والسياسية من تمجيد لواقع التوسع العسكري الأموي، باعتبارها فتوحات مجيدة من جهة، ومحاولة الحط من شأن كل معترض على التوسع وتقديمه في صورة نمطية تحط من قدره، باعتباره معارضاً لرسالة سماوية، وهذا شكل من أشكال الحرب النفسية التي كثيراً ما نجدها تسير جنباً إلى جنب مع كل توسع عسكري عبر التاريخ⁴.

2. الاسم الحقيقي للملكة:

يعتبر المؤرخ المشرقي الواقدي (130-207هـ/747-823م) أول مصدر دون تاريخ الفتوحات في بلاد المغرب، وقد أحجم عن مدنا بأي معلومات عن اسم الملكة البربرية الحقيقي سوى أنها "الكاينة". وهل هذا المصطلح هو الاسم الحقيقي للملكة؟ أم لقب أُطلق عليها لممارستها السحر والشعوذة والكهانة؟ على حد زعم بعض المصادر التاريخية.

ولم يختلف المؤرخ ابن عبد الحكم (187-257هـ) - الذي يعتبر رائد المؤرخين المغاربة - عن الواقدي، حيث أخبرنا بأن اسم الملكة هو الكاينة وأنها ملكة على البربر وحكمت كل إفريقية⁵. ويبدو أنه نقل معلوماته عن الواقدي. ولم يضيف كل من: المؤرخ البلاذري (297هـ/892م) والمؤرخ أبو بكر عبد الله محمد المالكي (ت: 1058م)، والبكري (404-487هـ/1014-1094م) شيء فيما يخص اسم وأصل الملكة واكتفوا بتكرير نفس رواية الواقدي. مع التأكيد على أن اسمها "الكاينة".

ويعتبر المؤرخ ابن الأثير (555-630هـ/1160-1233م) أول من ذكر بأن الملكة سميت الكاينة لممارستها الكهانة والسحر والشعوذة قائلاً: "... فدلّوه على امرأة تملك البربر تُعرف بالكاينة - وكانت تُخبرهم بأشياء من الغيب ولهذا سُميت الكاينة - وكانت بربرية وهي بجبل أوراس وقد اجتمع حولها البربر بعد قتل كسيلة..."⁶.

ويُعد المؤرخ ابن خلدون (732-808هـ/1332-1406م) الوحيد من بين المؤرخين الذي حدد الاسم الحقيقي للملكة وهو "دهبا"، وأنها تنتمي لقبيلة جراوة الزناتية، حيث ذكر ما نصه: "وكانت زناة أعظم قبائل البربر وأكثرها جموعاً وبطوناً، وكان موطن جراوة منهم بجبل أوراس، وهم ولد كراو بن الدير بن جانا (شانا). وكانت رياستهم للكاينة دهباً بنت... بن نبعان بن بارو (وقيل بن فيقان بن بارو) بن مصكسرى بن أفرد بن وصيلا بن جراو. وكان لها بنون ثلاثة... وبما كان لها من الكهانة والمعرفة بغيب أحوالهم وعواقب أمورهم فانتهت إليها رياستهم"⁷. وفي نص آخر له: "... وكان من أعظمهم شأناً يومئذ الكاينة دهباً بنت ماتية (ثابته) بن تيفان ملكة جبل أوراس وقومها من جراوة ملوك البتر"⁸.

والاسم الوارد عند ابن خلدون هو "دهبا" و"دهيا"، أما في المصادر العربية فهو "ديهيا" بالدال المهملة، والأبحاث اللغوية الحديثة رَجَّحت أن يكون الاسم الأول محرفاً في اللسان العربي لقرب مخرج حرفي التاء والدال من بعضها البعض، والاسم الصحيح هو "تيهيا"، وما يعزز ذلك احتفظت لهجة السوس الأقصى بالمغرب بهذا الاسم إلى اليوم والذي يعني "المرأة الحسنة"⁹. أما عن نسبها وأصلها فيرجعها ابن خلدون إلى قبيلة جراوة الزناتية التي كانت تحكم بلاد المغرب من جبال الأوراس (بالشرق الجزائري اليوم). وابن خلدون يؤكد ممارسة الملكة تيهيا عملية الكهانة لذلك لقبت بالكاهنة، ويبدو أنه نقل هذه المعلومة عن المؤرخ ابن الأثير وأكدها في نصه. ونوه أن ممارسة القيافة والتنبؤ كانت عملية عادية في بلاد المغرب في العصر القديم والوسيط، ومن يقوم بها يحتل مكانة مرموقة في المجتمع والدولة، فالكاهن في التاريخ المصري الفرعوني يأتي في المرتبة الثانية بعد الفرعون وفي بعض الأحيان يفوقه. لذلك نعت الملكة ديهيا بالكاهنة هو اعلاء من شأنها وليس انتقاصاً كما أردت المصادر المشرقية تصويره لنا، فهي كانت ذكية وتتوقع الأشياء قبل حدوثها.

3. معتقد الملكة:

تكررت بعض الروايات التاريخية بأن قبيلة "جراوة" قد تهودت (اعتنقت اليهودية) قبل الإسلام لكن الباحثين في تاريخ المغرب لم يقتنعوا بذلك وراح بعضهم يشك في الأمر، بينما نفاه البعض تماماً¹⁰. وابن خلدون يقر بأن جراوة قبيلة الكاهنة كانت على الدين الموسوي¹¹. فهل هذا صحيح يا ترى؟ أما المؤرخ المالكي (ت:1085م) فقد أشار إلى أنها كانت وثنية: "... فهربت تريد جبال أوراس ومعها صنم عظيم من خشب كانت تعبد، يُحمل بين يديها على جمل فتبعها حسان حتى قرب من موضعها..."¹². وقد كان الصنم الخشبي الذي أشار إليه المالكي محل اهتمام كبير من قبل الباحثين، ومعنى ذلك أنها كانت وثنية، وقد هلك لهذا الأمر أولئك الذين يزعمهم أن تكون الكاهنة على الديانة الموسوية، بل يزعمهم أن تكون في أفريقيا ديانة موسوية حتى قبل الإسلام، فظنوا أنهم عثروا على الحجّة الدامغة التي تنفي عن الكاهنة وعلى قومها أن يكونوا على الديانة الموسوية، والغرض من تلك الروايات هو جعل الكاهنة على ديانة تناقض الإسلام وتعاديه بشدة فهي مرة يهودية ومرة أخرى وثنية وذلك كله ممزوج بطقوس سحرية¹³.

ثانياً: طريقة وصول تيهيا إلى عرش المملكة

يعتبر ابن خلدون المصدر الوحيد الذي أمدنا بمعلومات مقتضبة عن كيفية وصول تيهيا إلى حكم قبيلتها البربرية، فقد نوه أن الملكة استغلت صغر سن أبناءها الثلاثة الذين أنجبتهم من زوجها زعيم قبيلة جراوة الزناتية لتستبد بحكم قومها وتدير شؤون المملكة بجبال الأوراس بدلا عنهم ريثما يكبرون وتسلمهم السلطة. حيث ذكر ما نصه: "وكان لها بنون ثلاثة ورثوا رئاسة قومهم عن سلفهم وربوا في حجرها، فاستبدت عليهم وعلى قومهم بهم، وبما كان لها من الكهانة والمعرفة بغياب أحوالهم وعواقب أمرهم فانتهت إليها رياستهم"¹⁴.

أما فيما يتعلق بعُمر الملكة ومدة حكمها فينقل لنا نفس المصدر رواية عن هانئ بن نكور الضريسي ما نصه: "ملك عليهم خمساً وثلاثين سنة (وفي نسخة خمساً وستين سنة)، وعاشت مائة وسبعاً وعشرين سنة"¹⁵. ويكرر المؤرخ السلاوي (1835-1897م) نفس نصّ ابن خلدون¹⁶.

يبدو أن الرواية فيها نوع من الغرابة، ويمكننا طرح عدة أسئلة لم يجيبنا عنها ابن خلدون، من ضمنها: كيف استطاعت الملكة أن تحكم كل تلك المدة الطوية دون أن ينتقض عليها قومها ويطلبوها بإرجاع الحكم إلى أبنائها أو أحد أبنائها وواصلوا مناصرتها؟ والسؤال الثاني هو كيف استطاعت رغم كبر سنها (127 سنة) محاربة جيش الفاتحين بقيادة حسان بن النعمان¹⁷؟ وانتصرت عليهم واضطرتهم التراجع إلى برقة؟ هذا ما لم يجيبنا عنه صاحب كتاب العبر، وهذا ما لم تجبنا عنه المصادر الأخرى، في حين ركزت أقلامهم على وصف معارك الكاهنة الحربية ضد المسلمين، لتعطينا فكرة نمطية أن الملكة البربرية رفضت الإسلام، في المقابل سكتت تلك المصادر ولم تشر إلى إبحام قائد الجيوش الإسلامية حسان عن إرسال الرسل والرسائل للكاهنة ليشرح لها الإسلام والمهمة النبيلة التي جاء من أجلها.

والأهم من كل ذلك أننا من خلال هذه الرواية التي تقرد بها ابن خلدون يمكننا تحديد سنة ولادة الملكة تيهيا (الكاهنة) إذا افترضنا أن سنة وفاتها معروفة في المصادر التاريخية وُحددت بسنة 693/هـ، وعاشت كما ورد في كتاب العبر لابن خلدون والمصادر الأخرى 127 سنة، فتكون سنة ولادتها بحوالي 53 قبل الهجرة/566م، وبداية تزعمها قبيلة جراوة والبربر كانت في سنة 658/هـ، إذا صدّقنا بأنها حكمت مدة 35 سنة، وهي الفترة التي كانت فيها الدولة المركزية في المشرق تعاني مشاكل كبيرة إثر مقتل الخليفة عثمان بن عفان في سنة 654/هـ، مما منعها من مواصلة الفتوح في الجهة الغربية.

وفي تحديد سنة بداية حكم الملكة "تيهيا" للبربر أهمية كبيرة فإذا سلمنا أنها كانت في سنة 658/هـ كما حددنا في الأسطر القليلة السابقة، فإنها تُعزز فرضية المؤرخ ابن عبد الحكم (187-257هـ) القائلة بأن الكاهنة كانت طرفاً في الصراع الذي دار بين كسيلة¹⁸ والفتح الأموي عقبة بن نافع¹⁹، وانحازت إلى جانب كسيلة، فقد روى عن شيخه عثمان بن صالح (ت: 835م) قوله: "وخرج ابن الكاهنة البربري على إثر عقبة، كلما رحل عقبة من مَنهل دفنه ابن الكاهنة، فلم يزل كذلك حتى انتهى عقبة إلى السوس، ولا يشعر بما صنع البربري، فلما انتهى عقبة إلى البحر أقحم فرسه فيه حتى بلغ نحره... وانصرف راجعاً...."²⁰، ويضيف أنه بعد مقتل عقبة سنة 663/هـ: "زحف ابن الكاهنة إلى القيروان يريد عمر بن عليّ وزهير بن قيس (كان قد استخفهما عقبة على القيروان قبل خروجه إلى السوس الأقصى)، فقاتله قتالا شديداً، فهزم ابن الكاهنة وقتل أصحابه..."²¹.

وقد كانت هذه الرواية عن ابن الكاهنة محل نقاش واسع بين المؤرخين والباحثين فبعضهم رأى خطأ أن المقصود بابن الكاهنة هو كسيلة، ولكن هذا لا يصح لأن كسيلة ظلّ على امتداد حملة عقبة ورجوعه أسيراً مقيداً²². والمتفق عليه تاريخياً أن الذي قتل عقبة هو كسيلة أمير قبيلة أوربة البرنسية، وحكم القيروان مدة خمس سنين، وهي المدة التي انشغلت فيها الخلافة الأموية عن المغرب، والفرضيات الممكنة وضعها هي

أنه: ممكن أن يكون ابن عبد الحكم أطلق اسم ابن الكاهنة على كسيلة إما خطأ، أو عن قصد بادعاء كسيلة لقب ابن الكاهنة لاستغلال صيتها وتجنيد البربر إلى صفه ضد عقبة بن نافع، لا سيما إذا كان مثل هذا اللقب يجلب لصاحبه فوائد، وفي هذه الحالة الثانية لا يكون للكاهنة أي دور في الأحداث التي وقعت بين عقبة وكسيلة، والفرضية الأخرى قد يكون ابن الكاهنة أدى فعلا دورا في تلك الأحداث، إما كطرف مستقل أو كحليف لكسيلة²³.

وابن عبد الحكم يلمح لهذه النظرية الثانية، حيث لم يجعل بداية حركة الملكة تيهيا ضد جيوش الفاتحين، بل جعل لها يد في مقتل الفاتح عقبة بن نافع، إذ لعبت دوراً بارزاً في تأليب القبائل وخصوصاً بربر الزاب فقتلوه، وهو بذلك يلمح إلى وجود علاقة بين حركة تيهيا وكسيلة، كما يحدد بأن زعامة البربر صارت إليها بعد مقتل كسيلة، إذ اجتمعوا إليها ونصرها نفر غفير منهم: بنو يفرن ومن كان بإفريقية من قبائل زناتة وسائر البتر²⁴.

ويؤيد هذا الافتراض ابن خلدون في قوله: "وكان قتل عقبة بن نافع في البسيط، قبلة الأوراس، بإغرائها (الكاهنة) برابرة تهودا عليه، وكان المسلمون يعرفون ذلك منها، فلما انقضى جمع البربر وقتل كسيلة رجعوا إلى هذه الكاهنة"²⁵. هاتان هما الروايتان الوحيدتان اللتان أعطت لنا بعض الإشارات عن اسم ونسب الملكة "تيهيا" وكيفية وصولها إلى الحكم قبل بداية حروبها ضد قائد الفتوح الإسلامية حسان بن النعمان.

ثالثاً: إشكالية أبناء تيهيا

1. إشكالية عدد أبناء تيهيا:

يعتبر ابن خلدون المصدر المهم الذي أعطانا معلومات عن أبناء الملكة في رواية نقلها عن هاني بن نكور الضريسي، قائلاً: "وكان لها بنون ثلاثة ورثوا رئاسة قومهم عن سلفهم وربوا في حجرها..."²⁶. ولكن المؤرخ ابن عبد الحكم (187-257هـ)، الذي عاش قبل ابن خلدون يذكر ابنين فقط للكاهنة، حيث روي: "...خرجت (الكاهنة) ناشرة شعرها... وإني لمقتولة فأوصيك بأخويك هذين خيراً، ... ويكون أحدهما عند العرب أعظم شأناً منه اليوم فانطلق فخذ لهما أماناً، فانطلق خالد فلقى حسان فأخبره خبرها، وأخذ لابنيها أماناً"²⁷. تتضمن هذه الرواية قضيتين مهمتين: الأولى تخص عدد أبناء الكاهنة؟ ومصير الابن الثالث الذي ضاع بين روايات المؤرخين؟ والقضية الثانية تتمثل في تبنى الكاهنة ابن رابع هو خالد بن يزيد في رواية ابن خلدون وابن ثالث في حالة رواية ابن عبد الحكم؟

فيما يخص القضية الأولى لماذا سكت ابن عبد الحكم عن ذكر الابن الثالث؟ وأين اختفى؟ ربما الإجابة عن هذا الإشكال نجده عند نفس المصدر، فإذا تمعنا في رواية سابقة ابن عبد الحكم (187-257هـ)، أن أحد أبناء الكاهنة خرج بعد مقتل عقبة سنة 63هـ/682م وحارب زهير بن قيس البلوي بالقيروان وقتل أصحابه: "زحف ابن الكاهنة إلى القيروان يريد عمر بن عليّ وزهير بن قيس، فقاتلاه قتالا شديداً، فهزم ابن الكاهنة وقتل أصحابه..."²⁸. ويمكننا التخمين بأن ابن الكاهنة قد قُتل في هذه الحرب. لأن المصادر التاريخية بعد

هذه الرواية تذكر ابنين للكاينة فقط، ومن ثم يمكن التأكيد بأن الابن الثالث قد قتل في معركة من المعارك والأرجح أنه قتل في هذه المعركة. ولكن يبقى الإشكال أن ابن خلدون ذكر ثلاثة أبناء.

2. قضية تبني الكاينة ابن عربي:

ولنعد الآن إلى إبداء بعض الملاحظات عن القضية الثانية التي طرحها ابن عبد الحكم والمتعلقة بتبني الكاينة لخالد، ويمكننا طرح عدة تساؤلات منها: هل تبنت الكاينة خالد لتعوض فقدانها الابن الثالث المقتول في المعركة؟ أم تبنته كما قالت لتستعمله في عملية الصلح مع العرب؟ وهل رواية التبني صحيحة أصلاً؟ بالعودة إلى أول وأقدم نصّ عربي للواقدي (130-207هـ/823-747م)، نجد أن الكاينة قُتلت رُفقة ابنيها في المعركة ضد حسان ابن النعمان، حيث ذكر: "...فسار حسان بجيشه وقاتل الكاينة وقتلها، هي وأبنائها، وعاد إلى القيروان"²⁹. وهذه الرواية تخالف صراحة رواية التبني والمؤاخاة التي ذكرها ابن عبد الحكم (187-257هـ) وكررتها المصادر الأخرى، ومن ثم يمكن القول بأن قصة التأخي التي اخترعها ابن عبد الحكم هي محاولة استدراك الموقف وتجاوز ألام الحرب بين العرب والبربر ونسيان الماضي وبداية صفحة جديدة وتعاون الغالب مع المغلوب³⁰.

يعتبر ابن عبد الحكم (187-257هـ) رائد المؤرخين المغاربة في نقل المعلومات عن الكاينة، وقد انفرد بتفاصيل لم يذكرها غيره، فهو حدّد تاريخ انطلاق حملة حسان بسنة 692هـ/73م، وذكر المكان الذي دارت فيها المعركة وبأنها كانت شديدة ويحدّد عدد الأسرى المسلمين بثمانين أطلقت الملكة سراجهما ما عدا أحدهم وهو المسمّى "خالد بن يزيد العبيسي" الذي استقبلته عندها وتبنته، وهنا تتضح عملية التغيّر في الرواية التي اصطبغت بالرومانسية، لمحو أثر هزيمة الجيش الأموي، وستكون قصّة الأسير خالد بن يزيد هي القصة الرئيسية، ومن أجل لفت الانتباه إليها كان لا بد من الإتيان برواية تقوم على التبني وما رافقها من طقوس، وقصّة الرسائل التي وجّد فيها بُناة أسطورة الكاينة فرصة لدرّ عناصر دالّة على أنها تنتبأ بالغيب، كما يدل عليها اسمها لتصل القصة أوجها في النهاية بتنبؤ "الكاينة" بانتصار الجيش الأموي، وبأنّ مستقبل ولديها مع المنتصر، وفي الأخير تطلق سراح أسيرها الذي آخت بينه وبين ولديها ليأخذ لهما الأمان عند حسان³¹. والرمزية التي في الأسطورة تهدف إلى تكريس الإخاء بين الغالب والمغلوب كما جاء في قصة التبني، "...خرجت (الكاينة) ناشرة شعرها، فقالت: يا بني، انظروا ما ذا ترون في السماء؟ فقالوا نرى شيئاً من سحاب أحمر، قالت لا وإلهي ولكنها رهج خيل العرب، ثمّ قالت لخالد بن يزيد، إني إنّما تبنتك لمثل هذا اليوم وإني لمقتولة فأوصيك بأخويك هذين خيراً. فقال خالد إني أخاف إن كان ما تقولين حقاً ألاّ يُستبقيا، فقالت بلى ويكون أحدهما عند العرب أعظم شأنًا منه اليوم فانطلق فخذ لهما أماناً، فانطلق خالد فلقى حسان فأخبره خبرها، وأخذ لابنيها أماناً"³².

تخلط هذه الرواية بين الدعاية والأسطورة لتحقيق مجموعة من الأهداف أولها إعادة رسم صورة نمطية للملكة، والعمل على ترسيخها في أذهان الأجيال، وهي إظهار الملكة في صورة الكاينة والعرافة لا في

صورة ملكة بربرية محاربة ذات هيبه وجمال، ولا فارسة تمتشق السيف وتكرّر في ساحة الوغى في ثقة وشموخ.

والهدف الثاني من الرواية هي تعزيز الأفكار بما يتلاءم والظروف الجديدة التي كانت تمر بها الدولة الأموية وبلاد المغرب في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي، حيث انتهت وقائع تلك المعارك الطاحنة، ومن ثم يجب الإتيان بروايات تقفز على الأحداث الأليمة وتتجاوز المعارك، ومن هنا يأتي دور المؤرخ الذي يعتبر عراب صلح بين العرب والبربر أكثر منه قاض كما هو شأن بعض المؤرخين ذوي النزعة الموضوعية الذين لا تشغلهم سوى الحقيقة، لأنّ الصلح الذي يجلب الأمن والأمان أفضل في أحيان كثيرة من الحقيقة التي تلهب المشاعر وتوقظ الفتنة³³.

ما تضمّنته هذه الأسطورة المكررة من قبل المؤرخين عن ابن عبد الحكم يعبر عن طرف واحد، بل وفيه إسهام في التمكين للطرف الأموي من قبل الملكة التي حنّت ولديها على الانضمام إليه، وهي لم تفعل ذلك إلاّ لتحفظ بكرى وكرامة الملوك، كما أرادت هذه الحكمة الأدبية، ومع أن نص ابن عبد الحكم يحتفظ بما جاء في نصوص الواقدي والبلاذري إلاّ أنه يزيد عنه عناصر تفصيلية هامة هي: التّبّي، المراسلات بين خالد وحسان، تنبؤات "الكاهنة"، وأخيراً الحصول على الأمان لولديها بطلب منها، وكما في كلّ النصوص التاريخية الإسلامية لا يعني الفتح إخضاع بلد لبلد أو شعب لشعب أو فرد لآخر ولكن هو إخضاع الإنسان لإرادة الله، ومن ثم تريد هذه الرواية أن تجعل الخلاف بين الكاهنة والجيش الأموي خلافاً بين رسالة الله من جهة وملكة كافرة وساحرة من جهة أخرى، فحسان هنا هو وجه الإسلام المشرق والكاهنة هي وجه الجاهلية المظلم، ولعل إضافة عنصر آخر هو سياسة الأرض المحروقة يزيد من بشاعة تلك الصورة النمطية التي ترسمها لها أقلام الكتّاب والمؤرخين نقلا عن روايات شفوية³⁴.

نجد تفاصيل وإضافات أخرى حول عملية الإخاء عند المؤرخ أبو بكر عبد الله محمّد المالكي (ت:1058م)، "...ثم عمدت إلى دقيق شعير مقلوّ، فأمرت به فُلّت بزيت - والبربر تُسمّي ذلك البسيصة - ثم دعت خالد بن يزيد وابنين لها فأمرتهم فأكلوا ثلاثتهم منها، وقالت لهم: أنتم (الآن) قد صرتم إخوة، وذلك عند البربر من أعظم العهد في جاهليتهم إذا فعلوه"³⁵.

3. ذكر اسم الولدين ومصيرهما:

يعتبر الرقيق القيرواني (425هـ/1034م)، أول من أمدنا بأسماء ابنا الكاهنة في قوله: "...وكانت لها ولدين أحدهما "قدور" والآخر "يامين" فقال لها: وكيف يكون ذلك وقد ذهب الرضاع منك، فقالت: إنّ جماعة البربر لنا رضاعٌ إذا فعلناه ننوارث به، فعمدت إلى دقيق الشعير، فلثته بزيت، وجعلت على ثدييها ودعت !! ولديها وقالت لهما: كولا معه على ثدي، وقالت لهم: إنكم قد صرتم أخوة..."³⁶. ولا ريب أن الرواية استندت إلى اعتبار الكاهنة موسوية وطبيعي أن يكون اسم ولديها الصغير يامين المشتق من اسم بنيامين الذي هو الابن الأصغر ليعقوب، ومنه أصبح اسم (Benjamin) يعني الأصغر في إخوته، وهو اسم لا يزال إلى اليوم في المنطقة³⁷.

أما فيما يخص مصير الولدين يشير المالكي في نصّه إلى نقطة غريبة تحتاج إلى تمعن وهي أن ولدي الكاهنة انضموا إلى جيش حسان قبل المعركة ضد والدتهما قائلاً: "... وكان مع حسان جماعة من البربر يقال لهم البتر فولّى عليهم الأكبر من ولدي الكاهنة وأكرمه وقربه، ثم مضى حسان ومن معه يريد الكاهنة"³⁸. وإن صح هذا الأمر معناه أن ولدي الكاهنة حاربا أمهما وقومهما البربر، وهذا غريب في رأيي. أما ابن خلدون فذكر أنهما سلما نفسيهما لحسان بن نعمان واعتنقا الإسلام وحسن إسلامهما: "وكان للكاهنة إبنان قد لحقا بحسان وحسن إسلامهما واستقامت طاعتهما، وعقد لهما على قومهما جراوة ومن انضوى إليهم بجبل أوراس..."³⁹. وفي نص آخر ذكر: "واستأمن إليه البربر على الإسلام والطاعة وعلى أن يكون منهم إثنا عشر ألفاً مجاهدين معه، فأجابوا وأسلموا وحسن إسلامهم، وعقد للأكبر من ولد الكاهنة على قومهم من جراوة وعلى جبل أوراس"⁴⁰. وهذه الرواية أرجح في رأيي ولكن تبقى إشكالية أن المصادر التاريخية لم تُشر لا من قريب أو من بعيد للدور الذي قام به ابن الكاهنة رفقة 12 ألف مجاهد في جيش حسان ابن النعمان ولا الدور الذي قاما به في عملية الفتح.

رابعاً: أسباب محاربتها الجيش الأموي ورواية الأرض المحروقة في المصادر التاريخية

1. سبب الحرب انتقام لمقتل كسيلة أم حسان هو البادئ بالحرب:

يعتبر الواقي (130-207هـ/747-823م) صاحب أقدم نصّ عربي تطرق إلى الحرب بين الكاهنة وحسان ابن النعمان، ويُرجع سببها إلى محاولة انتقام الكاهنة من مقتل كسيلة، حيث ذكر ما نصه: "...أظهرت الكاهنة غضباً لمقتل كسيلة... حكمت أفريقيا بقوة وقامت بأعمال فظيعة... وعلى إثر مقتل زهير بن قيس (البلوي عام 67هـ) لحق بمسلمي القيروان ضرر كبير... فقام عبد الملك بن مروان بإرسال حسان بن النعمان على رأس جيش كبير لقتال الكاهنة... انهزم الجيش وقتل منه الكثير، فانسحب بمن بقي معه إلى برقة وبقي هناك إلى سنة 74هـ، حيث جهّز له عبد الملك جيشاً كبيراً وأمره بقتال الكاهنة، فسار حسان بجيشه وقاتل الكاهنة وقتلها، هي وأبناؤها، وعاد إلى القيروان"⁴¹. في النصّ يُرجع الواقي سبب الحرب إلى محاولة الكاهنة الانتقام من مقتل كسيلة، وهذا ما يجعلنا نعيد النظر في شأن العلاقة التي كانت تربط الاثنين - كسيلة والكاهنة -، فهل كان كسيلة كبير ضباط الملكة؟ أم أنّ كلاً منهما كان على رأس مملكة وما يربط بينهما هو التحالف تجاه خطرٍ يهدّد الجميع؟ وإذا صدقنا جدلاً بأن سبب الحرب هو انتقام الكاهنة من مقتل كسيلة لكانت الملكة هي البادئة بالحرب وليس العكس وهذا ما لم تثبته المصادر التاريخية. والأمر الآخر الذي أشار إليه النصّ هو سوء حكم الكاهنة وشدتها وقسوتها، وحكمها إفريقيا بالقوة وقيامها بأعمال فظيعة، حيث لحق بمسلمي القيروان ضرراً كبيراً بعد مقتل زهير بن قيس البلوي عام 67هـ/686م، وهنا نطرح عدة تساؤلات من بينها: هل حكمت الكاهنة جميع بلاد المغرب أم المقصود بأفريقيا هي المغرب الأدنى (تونس) فقط؟ مع العلم أن مضارب قبيلة الكاهنة كانت في جبال الأوراس بعيدة عن تونس، أم نفهم من الرواية بأن الكاهنة زحفت من الأوراس على أفريقيا وضممتها إليها بالقوة وقامت بأعمال تخريبية فيها!

النقطة الأخرى التي ذكرها الواقدي بوضوح أنّ حسان ابن النعمان هو الذي بدأ بالحرب وزحف على الكاهنة بجيش كبير وانهزم أمامها، وقُتل منهم عدداً كثيراً فانسحب إلى مدينة برقة بليبيا ومكث فيها مدة خمسة سنوات ثم أتاه المدد من الخليفة الأموي في سنة 693/هـ74م فجدد قتاله ضد الكاهنة. وهذا عكس ما ذكرته بعض المصادر بأن حسان انهزم على يد قائد عسكري كان ضمن جيش كسيلة وليس على يد الكاهنة، والنقطة المهمة الأخرى التي ذكرها الواقدي هي: أنّ حسان قَتَلَ "الكاهنة" وولديها وهذا مخالف لروايات أخرى تحدثت عن مؤاخاة الكاهنة بين ولديها وأسيرها خالد بن يزيد العبسي. فهل تم قتل ولدي الكاهنة فعلا مع أميها؟

إن المؤرخ البلاذري (297/هـ892م) لا يُرجع سبب الحرب بين الكاهنة وحسان إلى محاولة انتقام الكاهنة من مقتل كسيلة مثلما أشار الواقدي، بل ذكر بأن حسان هو من بادر بالهجوم دون سبب، ولم يُكلف نفسه بعث رسائل للكاهنة يوضح لها سبب المجيء إلى بلاد المغرب أو شرح لها مبادئ الإسلام ودعاها للدخول فيه. حيث يذكر ما نصه: "...ثمّ ولي حسان بن النعمان الغسّاني، فغزا ملكة البربر الكاهنة، فهزمته فأتى قصوراً في حيز برقة فنزلها ... ثمّ إنّ حسان غزاها ثانية فقتلها وسبى سبياً من البربر وبعث به إلى عبد العزيز..."⁴². فسبب الحرب في هذه الرواية هي محاولة الثأر للهزيمة التي تلقاها القائد العسكري الأموي حسان بن النعمان وليس شيء آخر.

والأمر الآخر الذي أكدت عليه رواية البلاذري هو أن حسان هُزم في المرة الأولى من طرف جيش البربر بقيادة الكاهنة نفسها، واضطرته للفرار إلى برقة بليبيا والمكوث هناك مدة خمسة سنوات، ثم غزاها ثانية وهزمها وقتلها وسبى عدداً كثيراً من البربر وبعثهم إلى الخليفة الأموي بالمشرق، وفي هذه الرواية أغفل البلاذري ذكر مصير ابني الكاهنة الذي ذكر الواقدي بأنهما قُتلا في المعركة ذاتها. فما مصيرهما في رواية البلاذري يا ترى؟ هذا ما لم يفصح عنه وبقي لغز مفقود.

يعطينا المؤرخ المالكي (ت:1058م) فكرة بأن حسان لا يعرف الكاهنة وأنه هو الذي بدأ بالحرب وليس العكس، حيث سأل: "من أعظم ملوك إفريقية؟ وعنم إذا قُتل أو قُهر دانت إفريقية لقتاله ويئس الروم والبربر من أنفسهم، فقبل له امرأة يقال لها الكاهنة، وهي في جبل أوراس، وجميع من بإفريقية خائفون منها، والروم سامعون لها مطيعون، فإن قتلها يئس الروم والبربر أن يكون لهم ملجأ، فلما سمع ذلك حسان عزم على قصدها، فخرج إليها بجيوشه"⁴³. وفي النصّ محاولة التقليل من شأن الكاهنة وتشويه حكمها حيث وردت عبارة "فقبل له امرأة يقال لها الكاهنة"، وهو تقليل من شأنها، وكذلك وردت عبارة أخرى غريبة "وجميع من بإفريقية خائفون منها، والروم سامعون لها مطيعون". وهنا نطرح سؤال لماذا خائفون منها؟ هل لأنها كانت تملك من القوة والجيوش ما جعلهم يهبونها؟ أم لجبروتها وممارستها مهنة الكهانة؟

ويُرجع المؤرخ ابن الأثير (555-630/هـ1160-1233م) أسباب الحرب إلى حسان وأنه هو الذي بدأ بالحرب ولم يرجعها إلى محاولة الكاهنة الانتقام من مقتل كسيلة، ولعل أهم إضافة في رواية ابن الأثير أنه نقل صورة مشوهة عن الملكة ووصفها بممارسة الكهانة والبحر والشعوذة. ما نصه: "... قال حسان: دلّوني

على أعظم من بقي من ملوك أفريقية فدأوه على امرأة تملك البربر تُعرف بالكاهنة - وكانت تُخبرهم بأشياء من الغيب ولهذا سُميت الكاهنة - وكانت بربرية وهي بجبل أوراس وقد اجتمع حولها البربر بعد قتل كسيلة، فسأل أهل افريقية عنها فعظّموا محلها وقالوا له: إن قَتَلْتَهَا لم تختلف البربر بعدها عليك، فسار إليها فلما قاربها هدمت حصنً باغاية ظناً منها انه يريد الحصون فلم يعرّج حسان على ذلك وسار إليها فالتقوا على نهر نيني واقتتلوا أشد قتال رآه الناس، فانهزم المسلمون وقتل منهم خلق كثير وانهزم حسان...⁴⁴.

النقطة المهمة التي أوردها ابن الأثير في الرواية أن حسان بدأ حربه دون أن يبعث لها رسل أو رسائل يدعوها للإسلام أو يشرح لها المهمة النبيلة التي جاء من أجلها وهي نشر الإسلام وليس الاستيلاء على الأراضي والحصون. والنقطة الأخرى أن المؤرخ المشرقي يؤكد نفس رواية من سبقوه البلاذري والواقدي، بأن الكاهنة هي من قادت الجيش بنفسها وهزمت حسان في المعركة وليس شخص آخر. وعلى عكس ما جاء في رواية البربري كرر ابن الأثير نفس رواية المالكي عن تخريب الكاهنة افريقية والإضافة هي أن أصحاب الكاهنة خربوا الحصون ونهبوا الأموال.

وعلى العكس من ذلك فقد حرص ابن خلدون (732-808هـ/1332-1406م) على إبراز الجانب البطولي للكاهنة وقومها في مواجهة الجيوش الإسلامية وأن البربر لا يقلون شجاعة عن غيرهم، وكأنهم لا يعترضون على الإسلام كدين ولكن لا يقبلون الغزو واستباحة بلدتهم وممتلكاتهم أو الخضوع للآخر بسهولة مهما كان هذا الآخر، وحدد حملة حسان الأولى بعام 688هـ/693م والحملة الثانية بعام 693هـ/693م⁴⁵. وهو بذلك ينتصر للملكة البربرية تيهيا وبعث بلوم مبطن للقائد العسكري حسان بن النعمان.

2. ابن عبد الحكم والمالكي والتركيز على قضية الأسرى وابتكار أسطورة الإخاء:

يعتبر ابن عبد الحكم (187-257هـ) من بين المؤرخين المغاربة الأوائل الذين أشادوا بحسن تعامل الملكة البربرية "تيهيا" مع الأسرى المسلمين، حيث ذكر: "...وأسرت منهم ثمانين رجلاً، وأفلت حسان ... فأحسنّت الكاهنة إسار من أسرته من أصحابه، وأرسلتهم إلا رجلاً منهم من بنى عبس، يقال له خالد بن يزيد فتبنته وأقام معها..."⁴⁶. وفي هذا دليل على حسن تصرف الكاهنة ورجاحة عقلها عكس ما روج إليه ابن الأثير على أنها وصفت بسوء التصرف وسوء المعاملة. وهذا التصرف يدحض فكرة تطبيق الكاهنة سياسة الأرض المحروقة.

وهو يصف المعركة بأنها شديدة ويحدد عدد الأسرى بثمانين أطلقت الملكة سراحهم جميعاً ما عدا خالد بن يزيد العبسي الذي استبقته عندها وتبنته، "وأقام معها، فبعث حسان إلى خالد رجلاً، فأثاه، فقال له: إن حسان يقول لك، ما يمنعك من الكتاب إلينا بخبر الكاهنة؟ فكتب خالد بن يزيد إلى حسان كتاباً، وجعله في خبزة ملة، ثم دفعها إلى الرسول..."⁴⁷. وهنا وقع تغير في الرواية التي اصطبغت بشيء من الرومانسية، لمحاولة محو أثر هزيمة الجيش الأموي كما يبدو، وستكون قصة الأسير خالد هي القضية الجوهرية، ولجلب الأذهان إليها كان لا بد من اللجوء إلى بناء حبكة أسطورية تقوم على قصة التبنّي وما رافقها من طقوس، وقصة الرسائل التي وجدت فيها بُناة أسطورة الكاهنة بانتصار الجيش الأموي، وبأن مستقبل ولديها

مع المنتصر وفي الأخير تطلق سراح أسيرها الذي آخت بينه وبين ولديها ليأخذ لهما الأمان عند القائد المسلم، لتكريس الإخاء بين الغالب والمغلوب⁴⁸. وهو نوع من أنواع الحلول الوسطى لتجاوز الأحقاد بين البربر والمسلمين وقبول الأمر الواقع. وأنا بدوري أشك في رواية المؤرخة التي روجت لها بعض المصادر المتأخرة عن أحداث المعارك في بلاد المغرب.

3. قضية تخريب إفريقية التي اخترعها المؤرخ المالكي وأضاف عليها ابن الأثير:

يعتبر المالكي أول المؤرخين الذين اخترعوا قضية تخريب الكاهنة بلاد المغرب، وكررها من بعده ابن الأثير وعدداً آخر، حيث قال: "قلماً بلغ الكاهنة أن حسناً مقيم بقصور لا يبرح، قالت للبربر والروم: إنمّا طلب حسان من إفريقية المدائن والذهب والفضة والشجر ونحن إنمّا نريد المراعي والزرع، فما أرى لكم إلاّ خرابها، فوجّهت البربر يقطعون الشجر ويهدمون الحصون". قال ابن أنعم: وكانت إفريقية من طرابلس إلى طنجة ظلاً واحداً متصلة الشجر، فأخربت ذلك كلّهُ، فخرج من النصارى ثلاثمائة رجل (يستغيثون بحسان فيما نزل بهم من الكاهنة من خراب) الحصون وقطع الشجر، وفي أثناء ذلك وصله كتاب عبد الملك يأمره بالنهوض إلى إفريقية قبل أن تخربها الكاهنة، فوافق ذلك وصول الروم إليه وقدم رسول خالد بن يزيد عليه، فرجع بجميع عسكره إلى إفريقية⁴⁹.

كرر ابن الأثير نفس رواية المالكي في تخريب إفريقية وزاد فيها إضافة خطيرة وهي أن: أصحاب الكاهنة لم يكتفوا بتخريب الحصون بل عمدوا إلى نهب الأموال وهذا ما لم يرد في رواية المالكي: "... فخرّبوها، وهدموا الحصون ونهبوا الأموال..."⁵⁰. وهذا غريب وي طرح عدة تساؤلات منها: هل نهب أصحاب الكاهنة الأموال من القبائل البربرية الموالية لها؟ وهذا مستبعد، مع العلم أن ابن الأثير سكت عن التوضيح في هذه النقطة، والأرجح أن المالكي كان يريد تشويه صورة الكاهنة بسوء تصرفها. أو ربما أن الكاهنة عمدت إلى تأديب بعض القبائل المتحالفة مع المسلمين، وهو احتمال وارد جداً. لا سيما أن ابن الأثير ذكر في آخر النص أن الروم كانوا غاضبين من تصرف الكاهنة وهلّولوا بوصول حسان ورحبوا به ولم يقاتلوه كما في المرة الأولى. معنى ذلك أن ولاءهم تحول عن الكاهنة إلى حسان.

وقد صور ابن الأثير الكاهنة بأنها لا تملك عيون ومخبرين، بحيث كانت جاهلة بتحركات الجيش الإسلامي وهدفه وعمدت إلى تخريب البلاد وتهديم الحصون، بالرغم من أنها كانت بأمر الحاجة لتلك الحصون لتحتمي بها، من ثم فالرواية فيها شك في رأيي.

لا شك أن كل من المالكي وابن الأثير قد روجا إلى فكرة سوء تصرف الكاهنة تجاه العدو، ولجوؤها إلى تطبيق سياسة الأرض المحروقة ضناً منها أن المسلمين يريدون المدن والحصون والذهب دون الأراضي، وهذا غير صحيح في رأيي، لأن الكاهنة كانت قد هدمت حصن باغاية من قبل حسب رواية نفس المؤرخين ولكن حسان لم يلتفت إلى الحصن، ومن ثم علمت الكاهنة من هذا التصرف بأن المسلمين لا يريدون الحصون، وبذلك تكون قد اكتسبت تجربة من أهداف المسلمين ومن غير المنطقي أن تعمد إلى تخريب

الحصون مرة ثانية. والنقطة الثانية هي عدم امتلاك الملكة البربرية عيون وجواسيس يطلعونها بأخبار جيش المسلمين، وهذا مستبعد في رأيي. يمكن القول بأن الرواية التي جاء بها كل من المالكي وابن الأثير عن سياسة الأرض المحروقة كانت مبالغ فيها، والواقع أنّ نصّ الواقي يتضمّن الإشارة إلى قسوة الكاهنة وشدّتها في نصّ تاريخي يعتمد على المرويات الشفوية، ويُمكنُ للفكرة أو للصورة الصغيرة أن تكبر مع الأيام وتوالي السنين والأجيال، تماما مثل كرة الثلج المتدرجة، لتتحول في نصّ المالكي وابن الأثير الصرامة والحزم التي هي ميزة كلّ القادة الحربيين - ومنهم الملكة المحاربة الكاهنة - لدى الواقي (القرن التاسع) إلى تخريب إفريقية، في المقابل لم ينطق المصدرين بحرف واحد في شأن السبي والأسرى وتجريد الناس من كلّ ما يملكون عقب كلّ معركة أو غارة كان يقوم بها جيش التوسع الأموي، وأكثر من ذلك نحن نجد إشارة الواقي المتمثلة في قسوة الملكة تيهيا تكبر لتتحول في نصّ المالكي وابن الأثير إلى سياسة تخريب ودمار شامل، والغريب أنّ كل من جاء لاحقاً من المؤرخين لم يتوقّف لحظة لإعادة النظر في هذه الرواية ونقدها، مع أنها لا تتطلب جهداً كبيراً لكشف زيفها⁵¹.

خامساً: مصير الملكة تيهيا

1. فكرة أن من قاد جيش البربر هو قائد آخر ليس الكاهنة:

يعطينا المؤرخ المغربي البكري (404-487هـ/1014-1094م) الذي عاش في القرن الحادي عشر الميلادي، رواية غريبة مفادها أن من قادة الحرب ضد حسان ليست الكاهنة بل أحد ضباط كسيلة: "...لقي عساكر الكاهنة بأرض قابس وعلى مقدّمها القائد الذي كان مع كسيلة بن لمزم فاقتتلوا قتالاً شديداً فقتل صاحب خيل حسان بن النعمان وانهزم حسان وأصحابه إلى المنهل المعروف بقصور حسان..."⁵². والمتأمل جيداً في النصّ يجده يريد محو وصمة العار على حسان لكيلا يقال أنّ امرأة بربرية كافرة وساحرة وكاهنة هزمتها، فأُنْ يُقال هُزم على يد ضابط سابق في جيش كسيلة أقلّ إهانة له من أن يقال هُزم على يد امرأة بربرية محاربة⁵³.

2. رواية مقتلها في المعركة:

اختلفت المصادر التاريخية حول مصير الملكة تيهيا، ويمكن حصرها في رأيين:

- **الرأي الأول:** في أن الكاهنة قُتلت رفقة ولديها في المعركة، وهي تقاثل فسمي المكان الذي قُتلت فيه "بئر الكاهنة". وهذا رأي المؤرخ ابن عبد الحكم (187-257هـ)⁵⁴. ورأي ابن خلدون: "...وأوقع بهم وقتل الكاهنة، واقتحم جبل أوراس عنوة واستلحم فيه زهاء مائة ألف"⁵⁵. وفي نصّ آخر: "وزحف إليها وهي في جموعها من البربر فانهزموا، وقتلت الكاهنة بمكان السر المعروف بها لهذا بجبل أوراس"⁵⁶.
- **الرأي الثاني:** فذهب إلى أن الملكة تيهيا لم تُقتل في المعركة بل فرت وتتبعها حسان حتى ضفر بها وقتلها، وهذا رأي الرقيق القيرواني (420هـ/1029م) ذاكراً: "...فانهزمت الكاهنة واتبعها حسان حتى

قتلها، ونزل في موضع (الذي قتلت فيه وهو) بئرها وعليه بقى رأسها، فسمى الناس هذا (البئر بئر الكاهنة) إلى اليوم⁵⁷. وينقل المؤرخ ابن الأثير (555-630هـ/1160-1233م) نفس رواية الرقيق القيرواني عن وفاة الكاهنة وأنها فرت من المعركة وقتلت⁵⁸.

أما المالكي (ت:1085م) فذكر روايتين: الرواية الأولى: يشير فيها إلى انهزام الملكة في المعركة ثم هربها للتحصن بجبال الأوراس: "... وهربت الكاهنة تريد قلعة بشر لتحصن بها فالتصقت القلعة بالأرض فهربت تريد جبال أوراس ومعها صنم عظيم من خشب كانت تعبد، يُحمل بين يديها على جمل فتبعها حسان حتى قرب من موضعها،...⁵⁹". أما الرواية الثانية: فذكر فيها مصير الملكة بعد تتبعها والضفر بها قائلاً: "...فانهزمت الكاهنة وقتلت عند بئر فسماه المسلمون (بئر الكاهنة) فنزل حسان على الموضع الذي قتلت فيه، ويقال إنها قتلت عند طبرقة فعجب الناس من خلقها، وكانت الأترجة، تجري فيها بين عجيزتها وأكتافها⁶⁰. ونلمس تضارباً في رواية المالكي في هذا النص الثاني ذكر روايتين حول مصير الكاهنة الأولى أنها قتلت في موضع بئر الكاهنة ثم يشير إلى أنها قتلت في مدينة طبرقة وتم التكتيل بجنتها، وتعجب الناس من شكلها في إشارة إلى بشاعتها من جراء ممارستها الكهانة والسحر والشعوذة.

وأشار نصّ المؤرخ المغربي البكري (404-487هـ/1014-1094م) كذلك إلى أن الكاهنة لم تُقتل في المعركة بل هربت تريد التحصن بجبال الأوراس، واختبأها بالقصر الفخم الذي حُوصرت وقُتلت فيه: "... إلى قصر لجم وهو المعروف بقصر الكاهنة... ويذكر أن الكاهنة حصرها العدو في ذلك القصر فحفرت سرباً في صخرة صمّاء من هذا القصر إلى مدينة سلفطة يمشي فيه العدد الكثير من الخيل وكان ينتقل إليها بيه الطعام وسائر ما تحتاج إليه... وهو مبني بحجارة طول الحجر منها خمسة وعشرين شبراً ونحوها وارتفاعه في الهواء أربعة وعشرون قامة وهو من داخله مدرّج كله إلى اعلاه وأبوابها طاقات وبعضها جوف بعض باحاكم صناعة⁶¹.

وبذلك تبقى حقيقة كيفية مقتل الملكة البربرية تيهيا ومكان قتلها تائهة بين نصوص كتب التاريخ المدون بأهواء أصحابها دون التقيد بالموضوعية، ولا شك أن اعتبارات كثيرة أثرت في الموضوع منها: المدة الطويلة بين وقوع الحادثة التاريخية ووقت تدوينها، حيث كانت الأوضاع قد تغيرت في بلاد المغرب وكان البربر قد اعتنقوا الإسلام وأصبح منهم قادة وأسسوا دويلات.

الخاتمة:

إن المتتبع للروايات التاريخية التي سبقت حول الملكة البربرية "تيهيا" وتم الترويج لها باسم الكاهنة، ومحاربها لحيوش الفتح الإسلامي بقيادة حسان ابن النعمان، يجد الكثير من الاستفهامات والمغالطات، ابتداء بطمس اسمها الحقيقي "تيهيا" وإطلاق عليها اسم "الكاهنة" لأغراض معينة، كما تم تجاوز قبيلتها وكيفية وصولها إلى الحكم. في المقابل ركزت تلك المصادر على ذكر مقاومتها للفتح الإسلامي وأوصلوا لنا فكرة نمطية مفادها أن الملكة حاربت ديانة سماوية (الإسلام) وغفلوا بأن مقاومتها كانت دفاعاً عن الأرض

والعرض وليس نبذاً للدين. وقد عمدت بعض المصادر إلى اختلاق أسطورة "سياسة الأرض المحروقة". ثم تداركوا الموقف بعد ذلك واخترعوا رواية التأخي بين العرب والبربر عن طريق خالد وابنا الكاهنة، وفي الأخير اختلفوا في مصير الكاهنة فمنهم من ذكر بأنها قُتلت في المعركة كالأبطال وهي حاملة السيف تدافع عن أرضها وعرضها، في حين صورها آخرون بأنها جبانة هربت من المعركة وتم الضفر بها وقتلها بطريقة غامضة ثم التكتيل بجنتها للانتقام فتعجب الناس من شكلها.

المصادر والمراجع:

3. محمد العربي عقون- "الكاهنة" في المصادر العربية بين الأسطورة والخطاب السياسي- مجلة أسيناك- عدد مزدوج 6- المغرب- 2011م- ص 54.
4. نفسه- ص 54.
5. ابن عبد الحكم- فتوح مصر والمغرب- تحقيق عبد المنعم عامر- ج.1- الذخائر 49- الهيئة العامة لقصور الثقافة- مصر- ص 270.
6. ابن الأثير- الكامل في التاريخ- ج.4- بيروت- 1965م- ص 135-136.
7. عبد الرحمن ابن خلدون- العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر- مراجعة خليل شحادة وسهيل زكار- ج.7- دار الفكر- بيروت لبنان- 1421هـ/2000م- ص 12.
8. نفسه- ج.6- ص. 143.
9. العربي عقون- المرجع السابق- هامش ص 53.
10. محمد بن عميرة- موقف الكاهنة من الفتح الاسلامي- مجلة الدراسات التاريخية- جامعة الجزائر 2- المجلد الأول- العدد الثاني- 01-06-1986م- ص 20.
11. ابن خلدون- المصدر السابق- ج.7- ص ص- 12-13.
12. أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي- رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية- تحقيق بشير البكوش- مراجعة محمد العروسي المطوي- ج.1- ط.2- دار الغرب الإسلامي- بيروت- لبنان- 1994م- ص 54-55.
13. عقون- المرجع السابق- ص 59.
14. ابن خلدون- المصدر السابق- ج.7- ص 12.
15. نفسه- ج.7- ص 12-13.
16. أحمد بن خالد الناصري السلاوي- الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى- ج.1- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- 1917م، ص. 42.
17. هو حسان بن النعمان بن عدى بن بكر بن مغيث بن عمرو مزقيا بن عامر بن الأزدي، يعتبر من القادة المشهورين في الشام، كان مقرباً من خلفاء بني أمية، وذا شخصية قوية، ويتمتع بثقة كبيرة في الاوساط السياسية في دمشق، حتى لقب بـ "الشيخ الأمين"، وحسان هو أول الولاة الشاميين الذين عهدت إليهم مسؤولية الفتح في إفريقية (74-85هـ) في عصر الخلافة الأموية. (ينظر- موسى لقبال- المغرب الاسلامي- ط 2- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر- 1981م- ص 58).

18. كانت رئاسة البربر في بلاد المغرب أثناء بداية حملة الفاتح أبا المهاجر دينار لكسيلة بن لمزم من قبيلة أوربة البرنسية، الذي كان يعتنق النصرانية، وحارب أبا المهاجر حتى هزمه عند عيون تلمسان وأسره ثم اعتنق الإسلام وأصبح صديقاً لأبي المهاجر دينار وساعده على نشر الإسلام بين قبائل البربر في بلاد المغرب، ولما جاء عقبة بن نافع نكل به وأهانته وفتح جميع بلاد المغرب إلى أن وصل إلى السوس الأقصى، فنهض إليه كسيلة وقتله. (ينظر، ابن خلدون- المصدر السابق- ج.6- ص 142).
19. هو عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهري القرشي، ولد قبل وفاة الرسول (ص) بسنة واحدة، وكان يمت بصلة القرابة إلى قائد فتح مصر، عمرو بن العاص، فهو ابن خالته ولذلك أشرف على تربيته وتوجيهه، وكان رفيقه في فتح مصر، وكان له الفضل في فتح جميع بلاد المغرب ونشر الإسلام فيه. (ينظر - موسى لقبال - عقبة بن نافع الفهري - منشورات وزارة الثقافة والسياحة مديرية الدراسات التاريخية وإحياء التراث - الجزائر، د.ت.ن - ص 7).
20. ابن عبد الحكم - المصدر السابق - ج.1 - ص 268.
21. نفسه - ج.1 - ص 269.
22. عقون - المرجع السابق - ص 56.
23. محمد بن عميرة - المرجع السابق - ص 20-21.
24. السلاوي - مصدر سابق - ج.1 - ص 43.
25. ابن خلدون - المصدر السابق - ج.7 - ص 13.
26. نفسه - ج.7 - ص 12.
27. ابن عبد الحكم - المصدر السابق - ج.1 - ص 271.
28. نفسه - ج.1 - ص 269.
29. عن ابن الأثير - المصدر السابق - ج.4 - ص 371.
30. عقون - المرجع السابق - ص 55.
31. نفسه - ص 56-57.
32. ابن عبد الحكم - المصدر السابق - ص 229.
33. عقون - المرجع السابق - ص 57.
34. نفسه - ص 57.
35. المالكي - المصدر السابق - ج.1 - ص 52.
36. الرقيق القيرواني - تاريخ أفريقية والمغرب - تقديم وتحقيق وتعليق محمد زينهم محمد عزب - دار الفرجاني للنشر والتوزيع - القاهرة - 1414هـ/1994م - ص 47.
37. عقون - المرجع السابق - ص 59.
38. المالكي - المصدر السابق - ص 54.
39. ابن خلدون - المصدر السابق - ج.7 - ص 13.
40. نفسه - ج.6 - ص 143.
41. عن ابن الأثير - المصدر السابق - ج.4 - ص 371.

42. أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري- فتوح البلدان- تحقيق عبد الله أنس وعمر أنس الطابع- مؤسسة المعارف للطباعة والنشر- بيروت- 1987م- ص 320-321.
43. المالكي- المصدر السابق- ص 49-51.
44. ابن الأثير- المصدر السابق- ج.4- ص 135-136.
45. ابن خلدون- المصدر السابق- ج.7- ص 12-13.
46. ابن عبد الحكم- المصدر السابق- ج.1- ص 270.
47. نفسه- ج.1- ص 270-271.
48. عقون- المرجع السابق- ص 57.
49. نفسه- ص 53.
50. ابن الأثير- المصدر السابق- ج.4- ص 136.
51. عقون- المرجع السابق- ص 56.
52. أبو عبيد البكري- المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب- دار الكتاب الإسلامي- القاهرة- ص 7-8.
53. عقون- المرجع السابق- ص 58.
54. ابن عبد الحكم- المصدر السابق- ص 271.
55. ابن خلدون- المصدر السابق- ج.7- ص 13.
56. نفسه- ج.6، ص 143.
57. الرقيق القيرواني- المصدر السابق- ص 49.
58. ابن الأثير- المصدر السابق- ج.4- ص 163.
59. المالكي- المصدر السابق- ج.1- ص 54-55.
60. نفسه- ج.1- ص 55-56.
61. البكري- المصدر السابق- ص 31.